من أسرار الاعجاز

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كنت أرجم إلى نابغة الأدب مصطفى صادق الرافعي فى تفسير بعض آيات من القرآن الكريم لأستوثق بذلك زند قريحته واستدر ضرع بلاغته . وكان قلمه يجرى فى هذا التفسير على القرطاس ممرعاً على غير عادته فى سائر ما يكتب لى من رسائل مما يدل على تدفق المعانى التى يوحى بها إليه ، واشتمالها من خاطره الفياض عليه. وأنى أتحف قراء الرسالة الغراء بشىء من هذا التفسير البليغ المعجز .

محمود أبو ريه

— تفسير آية « زين للناس حب الشهوات »

راجعت عن آية « زين للناس » تفسير الشيخ محمد عبده ، وتفسير الألوسى فلم أر فيهما ما يهدى إلى السر فى هذه الآية ، والمفسرون جميعاً متفقون على أن « حب الشهوات » يراد به المشتهيات . والمعنى : زين للناس المشتهيات من النساء الخ ، وهذا يجعل الآية موضع نقد ويذهب بسر التعبير (بحب الشهوات)

وإعجاز هذه الآية هو فى لفظة (حب الشهوات) فلو قال

الهيئة جميل الطلعة أخذ منظره بمجامع قلبي فدعوته إلى الطعام فأبى ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت وأين تريد ؟ قال : الحج . قلت فى هذا الوقت ؟ . وقد كان أول يوم من ذى الحجة أو ثانيه ، فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصحبة . قال : إن أحببت ذلك فوعدك الليل ، فلما كان الليل جاءنى فقال : قم باسم الله . فأخذت ثياب سفرى ، وسرنا نمشى كأنما الأرض تجذب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ، ونقول هذه فلانة وهذه فلانة ، فإذا كان الصباح فارقنى ، وقال: موعدك الليل ، فإذا كان الليل جاءنى ففعل مثل ذلك فانتهينا إلى مدينة الرسول ، ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلا ، فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بيت المقدس. وقال إنى عازم على الإقامة بالشام . فرجعت أنا إلى بلدى بلخ

عبد الموجود عبد الحافظ

المشتهيات أو الشهوات ، أو حب النساء لما كان ذلك شيئاً . والشهوات وظائف طبيعية فى الناس فكونها زينت للناس أمر لا معنى له وليس فيه جديد ؛ ولكن (تزيين حبها) هو السر كل السر لأن حبها هو سبيل الحرص عليها ، والإكثار منها كالذى يجمع مالا ينتفع به ؛ فالمال فى نفسه منفعة وليس فى ذلك شىء عجيب؛ ولكن الذى يبتلى « بحب » المال تنقلب فيه هذه المنفعة ضرراً فيبخل ويبتلى بالحرص ثم يبتليه الحرص على المال بمحق حياته كلها .

فالشأن إذن ليس فى المشتهيات ولا فى الشهوات ولكن فى (أحب الشهوات) . ثم أن حب الشهوات متى كان سبباً فى الحرص عليها والإكثار منها فهو خطأ وضرر، فإذا (زين) ذلك للانسان كان أشد ضرراً وأمعن فى باب الخطأ. وهذه هى حكمة استعمال (زين) فكأن هناك ثلاث درجات : الشهوة وهو عمل طبيعى ، ثم حب الشهوة ، وهذه إضافة جديدة من العقل تزيد فيها ، ثم تزيين هذا الحب ، وهى إضافة ثانية تزيد الزيادة وتضاعف الخطأ . وعلى هذا تلحق الشهوات فى هذا الترتيب بالحد الخارج عن العقل، وهذا الحد هو أول الجنون ، كما يشاهد فى ذهاب أثر العقل وضعف حكمه عند « تزيين شهوة محبوبة » بحيث لا يبقى للعقل حكم ولا حكمة مع هذا التزيين !

وجعلت « زين » مبنية للمجهول لأن بعض هذا محبوب محمود فهو من زينة الله ويدخل فى قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) وبعضه مذموم مكروه فهو من تزيين الغرائز الفاسدة ، وبعضه حق وجنون فهو من تزيين الشيطان .

والغرض من الآية تجاوز الحد المعقول من شهوات الدنيا، فأن تجاوزه يجعل الدنيا هى الغاية ، مع أنها وسيلة فقط ، ولهذا قال (ذلك متاع الحياة الدنيا) ثم إنه قال « حب الشهوات » بالجمع ، ولم يقل الشهوة فتكون (الشهوات) مختلفة متباينة تقدر كل واحدة باعتبارها الخاص فى الأصناف التى وردت فى الآية ، فالشهوة للنساء غيرها من البنين ، وهذه غيرها من المال ، وهذه غيرها من الخيل المسومة الخ فكل واحدة ذات شأن خاص فى النفس كما هو مشاهد ، ولكن الجنون بها كلها معنى (زين حبها

فى النفس) شىء واحد .

وانظر الحكمة العجيبة فى الترتيب . فالنساء شهوات من الغريزة والعاطفة ، والبنين شهوات من العاطفة والنفس ، والمال الكثير من النفس فقط ، والخيل المسومة والانعام والحرث؛ هذه الثلاثة تارة جزاء من المال ، وتارة جزاء من عاطفة النفس كما يغرم بالخيل بعض الناس أو بالأنعام أو بالزراعة ، ولذلك جاءت فى الآية بعد النساء والبنين لأنها لاحقة بالغريزة والعاطفة والنفس .

ويدخل فى الخيل المسومة كل ما يقتنى للمباهاة والزينة أو لأغراض القوة على اطلاقها ومنه السيارات والطيارات الخ . ويدخل فى الأنعام كل ما يقتنى للتجارة والكسب ، وفى الحرث كل ما يقتنى للأعمال والايجاد ومنه المصانع والمعامل الخ . فاذا حققنا هذا وجدنا هذه الأبواب جامعة لكل الشهوات الفاشئة من جميع قوى الجسم الإنسانى والنفس الإنسانية .

أما ما كان خاصا بشهوات العقل فلا يدخل فى الآية ، وهذا من أعجب إعجازها ، لأن أمور العلوم والفنون (لا تزين) إلا لفريق محدود من الناس ، أى لا يزين حب الشهوات منها ، وهذا الفريق عادة هم النوابغ العبقريون ، وهؤلاء العبقريون فى الحقيقة لا يجدون من العلوم والفنون « متاع الحياة الدنيا » ولكن مصائب الحياة الدنيا ... (١)

تفسير آية «ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا»

وسألناه عن موضع لفظ (شيئاً) من الآية الكريمة « ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض — شيئاً — ولا يستطيعون» من سورة النحل فأجاب رحمه الله :

أما تفسير الآية التى سألت عنها فقد راجعت التفاسير أول من أمس فلم أر فيها ما يقنع . والذى ظهر لى أن (شيئاً) فى الآية بدل (من رزقاً) وهذا الاعراب نبه إليه المفسرون وجعلوه ضعيفاً مع أن فيه كل القوة ، لأن المراد من الآية أن هؤلاء « يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض » وهنا يعترض هؤلاء أنفسهم بأنهم يعتقدون أن معبوداتهم تملك ذلك وإلا فلم عبدوها ؟ فجاءت لفظة (شيئاً) لبيان أن كل ذلك وهم وتخيل وضلال إذ لا معنى للرزق إلا إذا كان (شيئاً) لا وهماً فقط ، ولا شىء ترزقه هذه المعبودات من السموات والأرض . فاذا كانت لا ترزق شيئا على الاطلاق ، فهى على الاطلاق ليست شيئاً إلا ما توهموه منها ، وهذا كالذى توهموه فيها فالأمر فيهم وفيها كله وهم وضلال ، ولهذا جاء بعد ذلك (ولا يستطيعون) ، وعبر هنا بضمير الجمع العاقل ، مع أن أولى الآية (ما لا يملك) فدلت الكلمة الأخيرة على أن المراد أن هؤلاء العابدين ومعبوداتهم كالأوهام المحضة ، لا هى تستطيع أن ترزقهم شيئاً كائنا ما كان من السموات والأرض أى ولو ذرة ، ولا هم يستطيعون أن يجعلوها قادرة على شىء من ذلك .

(فشيئاً) هذه معجزة الآية كلها ، ويستحيل أن ينتبه إليها عقل بشرى ويجيء بها فى هذا الموضع . وتكون النتيجة التى ترمى إليها الآية بهذا التعبير : أن المعبود الحق هو القوة الأزلية المالكة للايجاد المطلق ، أى الواحد الأحد وهو الله لا غيره وما عدا ذلك فهو من اختراع أوهام الناس ؛ موجود فى الوهم معدوم فى الواقع والمعنى . أليست هذه الكلمة الواحدة (شيئاً) تستحق أن يسجد لها أهل البلاغة يا أبا رية ؟

أنقل هذا التفسير وأرسله فى ورقة على حدة لتضمه مع مذكرات أسرار الاعجاز فإن هذه الكلمة التى تظهر كالزائدة فى الآية ، هى سر الآية كلها ، وهذا كله كالإعجاز من الإعجاز (واكتب لى هذه العبارة أيضاً فى ورقة التفسير (١)

مصطفى صادق الرافعى

ص ٢٣٣ — ٢٣٥ من رسائل الرافعى

(١) ص ٢٤٤ — ٢٤٥ من رسائل الرافعى